مفهوم الشرق الأوسط
بين الجغرافيا والجيوبوليتكا

معين حداد ×

يكثر الحديث عن «الشرق الأوسط» في مختلف وسائل الاعلام ومراكز الدراسات الجيوسياسية، فضلاً عن الخطب الأكاديمية المعتمدة في الأقسام المختصة في الجامعات العربية والأجنبية. وهو كإقليم جغرافي يتوسط دائرة تضم القارات الثلاث: آسيا وإفريقيا وأوروبا؛ ويعيش عليها أكثر من أربعة أخماس سكان الكرة الأرضية. وفيه تتضارب المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية المحلية والعالمية، وما يتفرع عنها من تناقضات على مختلف الصعد. وقد تحولت المنطقة ساحة تتفاقم فيها الصراعات المتعددة المقاييس. وحتى بعد نهاية الحرب الباردة وتلاشي الاتحاد السوفياتي، لا يزال الشرق الأوسط يمثل البؤرة التي يتركز فيها تصادم الدول.

ومع أن تعبير «الشرق الأوسط» يكاد أن يكون الأكثر شيوعاً في الجغرافيا السياسية، إلا أنه يتقاطع مع تعابير أخرى منها «الشرق الأدنى»، و«المشرق»، من دون تمييز دقيق للمضامين الجغرافية لهذه المصطلحات التي يوجد إلى جانبها مصطلح آخر له دلالة جغرافية مختلفة، وهو «الشرق الأقصى».

تتسم جميع هذه التعابير بالمحورية الأوروبية المرتبطة بالنشاط الاستعماري الذي كان سائداً في القرن الماضي والنصف الأول من القرن العشرين. وقد أظهرت باريس ولندن في هذا الميدان تفوقاً ملحوظاً على العواصم الأوروبية الاستعمارية الأخرى. وكانت إحدى نتائج تباين السياسات الأوروبية وتناقضها في «الشرق الأوسط»، نشوء وضع غير مستقر فرض على العواصم المذكورة المتابعة الدائمة لمصالحها ووضع الاستراتيجيات المبنية على التحليلات والاستشرافات التي كانت تقتضي صوغ المصطلحات الضرورية لذلك.

× أستاذ الجغرافيا في الجامعة اللبنانية.

مساحة الشرق الأوسط

الشرق الأدنى هو الأقرب إلى أوروبا، والشرق الأقصى هو الأبعد. أما الأوسط فيصبح بين الاثنين. إلا أن واقع الأمر لم يكن خاضعاً لهذا المنطق الشكلي المبسط، بل لضرورات الصراع التي رافقتها العمليات العسكرية في الحروب المتعددة. لذلك ظهرت هذه التسميات من دون أن توضع حدود ثابتة لها على الخرائط، إذ تدل على مساحات تعتمل فيها أزمات ذات تحولات

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

متسارعة الوتيرة في الزمان والمكان. فكانت المضامين الجغرافية لهذه المصطلحات تتقلص وتتمدد مع حركة الجيوش وجبهات القتال المتنقلة، وخصوصاً في الحربين العالميتين الأولى والثانية، وإن تكن المدة الفاصلة بينهما لم تخلُ من المواجهات التي كانت تدفع هيئات الأركان العسكرية إلى التعديل في «الترسيمات» الجغرافية للمصطلحات الآنفة الذكر.

تشابك الشرق الأوسط والشرق الأدنى والمشرق

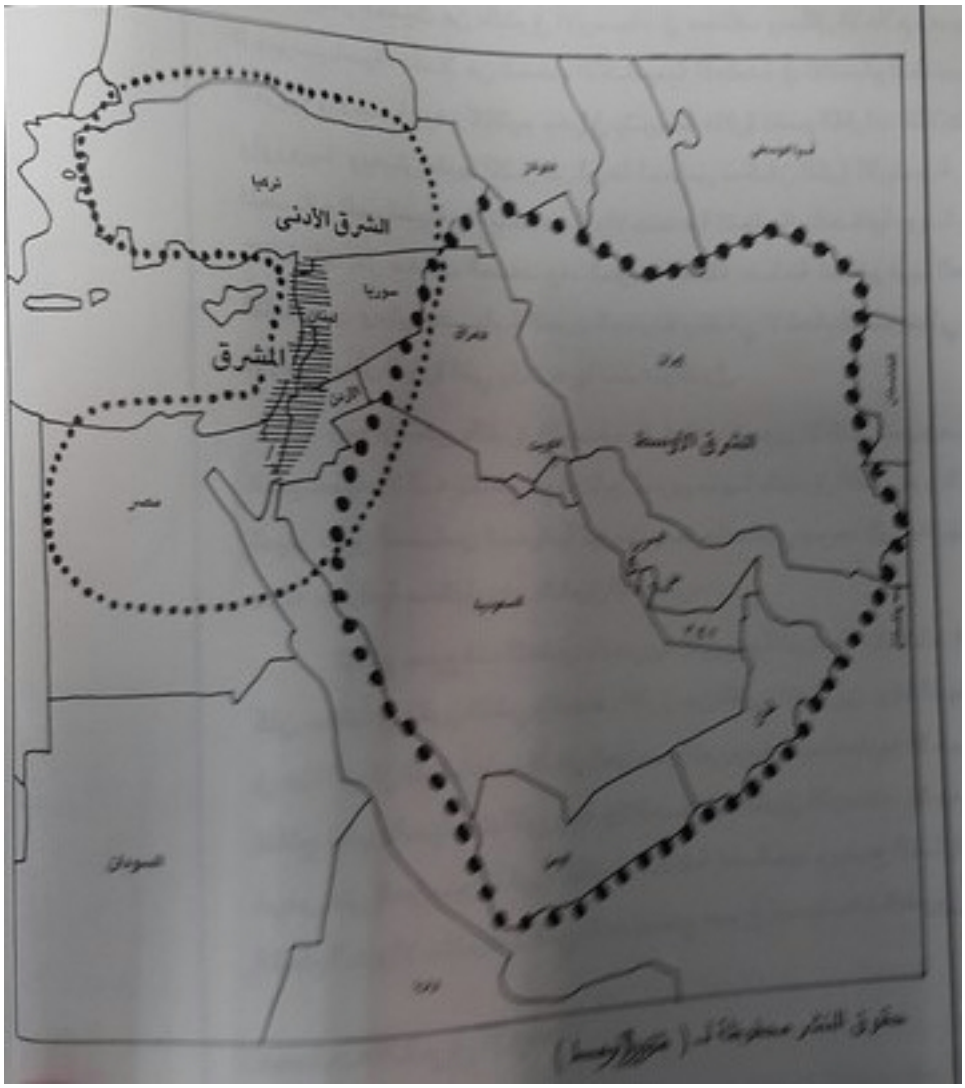

وبعد انكفاء الاستعمار الأوروبي التقليدي، ورثت عاصمتا الإمبريالية الحديثة، موسكو وواشنطن، هذه التسميات مع تبديل في المفاهيم الجيوسياسية. فتلاشت إثر ذلك المحورية

(١) يطرح «دافيد فروكلين» في كتابه سلام ما بعده سلام، ترجمة أسعد كامل الياس، (بيروت: دار نجيب رياض الريس، ١٩٩٢) تصوراً لمساحة الشرق الأوسط تشمل «كامل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأوروبية، فيما حـافظت المصطلحـات على استمراريتهـا، وإن في شكل متفاوت. ذلك أن «الشرق الأقصى» يكاد أن يغيب عن الاستعمال، كـما تراجع «الشرق الأدنى» لمصلحة «الشرق الأوسط». أمـا «المشرق» فقد استبـدل في الأدبيات السـياسية العـربية بمصـطلح له مدلول خـاص بالعالم العربي، هـو «المشرق العـربي» الذي يقـابله حكماً «المغـرب العربي» من دون أن يـؤثر ذلك في مصطلح «الشرق الأوسط».

وكون التسمـية أتت من الخارج يدل عـلى أن شعوب المنطقة شكلت مـادة سياسية تفعل فيها الأحـداث التي تقرر مسارهـا العواصم الخارجية، ممـا دفع بعض المؤلفين أو الدارسين إلى اعتـبار «الشرق الأوسط» مـنطقة وسيطـة بين القارات تعـيش عليها شعـوب شلت إرادتها إبان حروب القرن العـشرين. وتمتد هذه المنطقة من «المغرب العـربي» غرباً إلى أفغانستان شرقاً، ومن اليونان شمالاً حتى المحيط الهندي جنوباً، من دون الأخذ بأي من الاعتبارات الجغرافية الأخرى، الأمر الذي استوجب مقاربة علمية أكثر دقة في تحديد مصطلح «الشرق الأوسط»، وذلك لرسوخه من جهة، ولانفكاكه عن المحورية الأوروبية، من جهة أخرى (١).

الساحة التي حـاربت فيها بـريطـانيـا بـدءاً من الحـروب النابوليونية لحماية طريق الهند من هجمات فرنسا أولاً، ثم هجمـات روسيا في مـا أصبح يعرف باسم «اللعبة الكبرى» ص ١٤,

أما الـسبيل الذي سنعتمده لتحـديد حيزه الجغرافي، فينطلق ممـا هو شائع عن مضمونه الجغرافي، ثـم دراسة نشـأته وتطوره وطـريقة تمحوره حول القضـايا والأزمات التي جعلت من بنيته السياسية الأكثر اهتزازاً في العالم. وإذ ذاك تتكشف أسس هذه القضايا والأزمات التي تبدو وكأنها تجذرت فيه، أقله في المدى المنظور، إذ لا شيء يشير إلى أن الآفاق المستقبلية لشعوب المنطقة تعـد بسلام شامل وعادل، على الرغـم مما يتراءى لنا من جهود تبـذل في هذا الاتجاه، واستطراداً التعثر المستمر والمتفاقم لخطط التنمية فيه.

يشـتمل الشرق الأوسط على مسـاحات تقع على زوايا القـارات المتلاصقة. ويقـودنا هذا الأمر إلى ضرورة تـوضيح العلاقة الجغرافية التي يتأسس عليها تمايز كل قارة عن الأخرى. وإذا كانت أميركا تمثل قارة قائمة في ذاتها، فإنما يعود ذلك إلى أن محيطات شاسعة تفصلها عن غيرها من القارات، وينـسحب هذا على أوقيانيـا وعلى الدائرة القطبـية في المناطق القطبيـة الجنوبية. أما القارات الثلاث، أوروبا وآسيـا وإفريقيا، فهي على تمـاس في يابستهـا التي نشأ علـيها الإنسان باعراقه المعروفة: الأبيض والأصفر والأسود.

والحقيقة أن توزع هـذه اليابسة على قارات ثلاث ليس توزعـاً اعتباطياً. فالفواصل بينها من الناحية الطبيعية تكمن في ضيق البر حتـى اختفائه: الداردنيل والبوسفور بين آسيا وأوروبا، والسـويس بين آسيـا وإفريقيـا، وجبل طارق بـين أوروبا وإفريقـيا. وتنفتح هـذه المضائق على مساحـات صحراوية شاسعة شبه خالية من العمران: صحاري في الشمال بين الأورال وسيبريا، وصحاري حـارة في الجنوب: الصحراء الكبرى في إفـريقيا وسيناء؛ والصحـراء العربية في آسيا.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتتضافر المضائق والصحاري لتحد من امكان اتساع العمران المستقر، وتقلل من صلات الوصل البشري بين القارات. لذا، فإن امتداد «الشرق الأوسط» واشتماله على مناطق تنتمي إلى قارات مختلفة يطيح الاعتبارات الجغرافية الكلاسيكية ليتمحور حول أزمات وقضايا نوعية ومتشابكة سنلج تفاصيلها ونحدد مساحاتها في ما بعد.

وهنا يطرح تلقائياً السؤال الآتي: ما هي البلدان التي يتكون منها الشرق الأوسط؟

ورد في دوائر المعارف العالمية تحديدات مختلفة لبلدان الشرق الأوسط نذكر منها بعض العينات التي تظهر التخبط والالتباس اللذين يرافقان دوماً هذا الموضوع. ففي موسوعة «لاروس» (Larousse) الفرنسية جاء عن الشرق الأوسط ما ترجمته «الشرق الأوسط في الانكليزية (Middle East) اسم يطلق أحياناً على مجموعة الدول المحاذية لشرق البحر المتوسط، وهي تركيا وسوريا ومصر ودولة إسرائيل ولبنان، كما يطلق أيضاً على السعودية والعراق وإيران». ثم تضيف: «يمكن أن تتسع التسمية لتشمل أحياناً ليبيا والسودان، وأحياناً أخرى المناطق التي تسبق الشرق الأقصى، وهي أفغانستان وباكستان والهند، كما تغطي التسمية جزئياً الشرق الأدنى».

وجاء في موسوعة «كييه» (Quillet) الفرنسية عن الشرق الأوسط أنه «يمتد على مساحة تبلغ خمسة ملايين كيلومتراً مربعاً تشكل ملتقى القارات الثلاث، أوروبا وآسيا وإفريقيا، من الشواطىء الشرقية للبحر الأبيض المتوسط حتى الشواطىء الشمالية الغربية للمحيط الهندي، مما يجعله ممراً، إلى جانب كونه منطقة تماس وانتقال يصعب تحديدها من الناحية الجغرافية، إلا أنها شكلت منذ العصور الموغلة في القدم كياناً خاصاً مركزه الهلال الخصيب حيث ظهرت وترعرعت مختلف حضاراتنا القديمة: السومرية والكلدانية والمصرية، وكذلك الديانات التوحيدية الكبرى: اليهودية والمسيحية والإسلام». وتضيف: «من الوجهة السياسية ينقسم الشرق الأوسط بلداناً عربية عدة في أغلبيتها هي: مصر والعراق وسوريا ولبنان والأردن والسعودية واليمن والكويت وإمارات الخليج الفارسي الأخرى؛ وبلداناً غير عربية: تركيا وإيران وإسرائيل وقبرص... وإلى جانب هذه البلدان يدخل بعض الجغرافيين في منطقة الشرق الأوسط أفغانستان، وحتى باكستان».

تتسم هذه التحديدات وغيرها، كما نرى، بالبلبلة المتأتية من إدراج بلدان واقتطاع أخرى من المضمون الجغرافي لمصطلح الشرق الأوسط من دون الاعتماد على معايير دقيقة. لذا، لا بد لنا في توخينا جلاء الأمر من العودة إلى نشأة المصطلح ومواكبة تطوره وطريقة رسوه على رسم معين.

نشأة مصطلح الشرق الأوسط وتطوره

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قد يبـدو غريباً ألا يكون لعلماء الجغرافيا أي دور في صوغ مصطلح الشرق الأوسط الذي كان على الأرجح من وضع أميرال البحـرية البريطانية، ماهان (Mahan)، وذلك عام ١٩٠٢ عندما كان يحض حكومته على وضع استراتيجية مـضادة للنشاط الروسي في إيران، والمشاريع الألمانية المختلفـة في اتجاه بغـداد، داعياً هـذه المناطق «الـشرق الأوسط» لوقـوعها بين الـشرقين الأدنى والأقصـى. وفي العام نفسه ظهـر تعبير الشرق الأوسط في صحـيفة التايمـز الصادرة في تشرين الأول/ أكتوبر، وقد استعمله شيرول (Chyrol)، مـراسلها في طهران، ليشير إلى المناطق الشمالية والغربية لحدود الإمبراطورية البريطانية في الهند، التي تشمل البلدان المعروفة اليوم بأفغانستان وإيران والعراق بحدودها الحالية. ولم يتوان الصحافي المذكور عن اطلاق تعبير «الشرق الأوسط» في ما بعد على مناطق منفصلة عن بعضها البعض وصلت حتى التيبت شمال الصين.

يبـدو واضحـاً، إذاً، أن «الشرق الأوسـط» يتمحـور في نشـأته حـول الهنـد وأطراف الإمبراطورية البريطـانية المهددة بالأخطـار. لذا، تحول المصطلح مفهومـاً جيوستراتيجياً يغطي مساحـات حدودية لم يكن في مـقدور «المملكة المتحـدة» التحكم فيها نظـراً إلى اختراقها من قوى استعماريـة جديدة. وصار رسم خرائط الشرق الأوسط يتـبدل بفعل التأزم المتفاقم والمستشري عشية الحرب العالمية الأولى.

وعـام ١٩١١ استعمل أحـد اللوردات، وهـو اللورد كـروزون (Crozon) اسم «الشرق الأوسط» في جلسة منـاقشة لمجلس العموم، لـيشير إلى مجموعة من البلـدان تضم إيران وتركيا والخليج حيث كـانت مشـاريع السكك الحـديد المتنـافسة تمـثل هماً متعـاظماً للإمبراطـورية البريطانية، وإذا بالمضمون الجغرافي للمصطلح يتدرج نحو الغرب، وقد خرج منه الجزء الأكبر من آسيا الوسطى.

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى، تلقت القوات المتـمركزة في العراق أوامر لندن بالتوجه إلى دلهي في الهنـد؛ وهي تحمل اسم «قـوات الشرق الأوسط» (Middle East Forces) . أمـا القوات المتمركزة آنذاك في القاهرة فكانت تعرف بـ «قوات الشرق الأدنى» (Near East Forces) .

مـا بين الحربين، وتحـديداً عام ١٩٣٢ تـم دمج قيادتي سلاح الجو المـلكي البريطاني لـ «قوات الشرق الأوسط» و«قوات الشرق الأدنى»، تحت اسـم الشرق الأوسط. فبدأ آنذاك انحسار مصطلح «الـشرق الأدنى» في البـلاغات العسـكرية الـبريطانيـة. وعام ١٩٤٠ هددت الـعمليات العـسكريـة الإيطالـية، الجاريـة حول مصر في الغـرب والجنوب، قنـاة السويـس ذات الأهمية الاستراتيجية الحيـوية، فأنشـأت لندن في الـقاهرة هيئة أركان عسكـرية عرفت بـ «هيئة الأركان العـليا للشرق الأوسط»، وأناطت بها المسؤولية العسكـرية عن المساحة الممتدة دائرياً حول مصر: من ليـبيا في الغرب إلى الـصومال في الجنـوب، والخليج الفارسي في الشرق، وفي مـواجهة مباشرة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعملانيـة مع إفريقيا الشـمالية التي كانت تمثل قـاعدة انطلاق العمليات العـسكرية المثيرة التي قامت بها الفرق الألمانية بقيادة الماريشال رومل.

عندها صـار «الشرق الأوسط» مصطلحاً جيـوستراتيجياً يتواتـر في البيانات والبلاغات العسكريـة، ويتم تسجيله على الخرائط المـختصة، وتعنون به المخططـات الرسمية والمنشورات، فزاد شيوعه في مختلف العواصم، واكتسب تحديداً جديداً كمسرح للعمليات العسكرية الجارية في المنطقة المـمتدة من شمال إفـريقيا إلى الخلـيج الفارسي مروراً بـاثيوبيـا والصومـال والجزيرة العربية، ومركز هذه المنطقة القاهرة.

عنـد هذا المستـوى، بدا أن مصطـلح الشرق الأوسط بات يـشمل ما كان يـدعى «الشرق الأدنى» الذي انحسر استعماله غداة الحرب العـالمية الثانية، إلا أن قيام إسرائيل بالقوة والحروب التي دارت في فلسطين ومحيطها، أعادت «الشرق الأدنى» إلى قيد التداول في وسائل الاعلام.

في فرنسـا اختلف الأمر عنه في بريطانيا. فـالمسار الذي اتخذه مصطلح «الشرق الأوسط» أبقى لفترة طـويلة الإزدواجية مع «الشرق الأدنى»، متداخلاً مع مصطلحين آخرين هما: «المشرق» (Levant) و «الـشرق» (Orient) . وبدت هذه الإزدواجيـة كاحدى نتـائج التنافـس السياسي بين باريس ولندن منذ اتفاقات سايكس ـ بيكو المعقودة عام ١٩١٦,

عُرف «المشرق» أولاً بالجزء الفرنسي في خريطـة (سايكس ـ بيكـو) الشهيرة، أي سوريا ولبنـان. وسرعان ما استبدل «الشرق» (Orient) بـ «الشرق الأدنى» (Proche Orient) ، في إشارة إلى المناطق التي تسعى فرنسا لمد نفوذها إليها، والواقعة في الجزء الشرقي من البحر المتوسط.

بعـد نشأة إسرائـيل تحول «الشرق الأدنـى» في مختلف الأدبيات الـسياسيـة الأوروبية تسمـية تطلق على البلدان المعنيـة مباشرة بالمواجهات العـسكرية في الصراع العربي ـ الإسرائيلي. لكن وزارة الخـارجية الفرنسية تعتمد حاليـاً في هيكليتها الإدارية تقسيمات أخرى، ذلك أن دائرة شـؤون «إفريقيا الـشمالية ـ الشرق الأوسـط» تضم ثلاثة أقسـام: الأول، مصر ـ المشرق (الذي أصبح يضم إسرائيل وسوريا والأردن ولبـنـان)؛ والثاني، الشرق الأوسط من اليمن حتى إيران مروراً بكل دول الخليج؛ والثالث، أوروبا الجنوبية وتركيا ـ قبرص.

هـذا على الصعيد الإداري. أما عـلى مستوى المعالجـات السياسيـة، فإن «الشرق الأدنى» مرتبط بالمسألة الفلسطينية وانعكاساتها المباشرة من الناحية الجغرافية، ويشمل إسرائيل ومصر والأردن وسوريا ولبنان، بيـنما يتمحور «الشرق الأوسط» حول الشأن النفطي، ومركزه الخليج الفارسي.

من هنا، فإن ما درجت عليه الدراسات الجيوسياسية الغربية من الحفاظ على الإزدواجية في الإشـارة إلى منطقة "Proche et Moyen - Orient" ، ما هو إلا دلالة على التشابك والتداخل بين

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشأنين الفلسطيني والنفطي، كما يراهما ويعالجهما العالم الغربي.

والحقيقة أنه ليس صدفة أن تقود حرب الخليج عام ١٩٩١ إلى مفاوضات سلام حول فلسطين بين العرب وإسرائيل عام ١٩٩٢, وفي تتبعنا لمجريات السياسة الفرنسية عشية وخلال حرب الخليج ذات الدوافع النفطية، تتكشف لنا الأسس التي تبني عليها الدول الكبرى استراتيجيتها، انطلاقاً من رؤية خاصة لشؤون «الشرق الأوسط»، دافعة الأزمات فيه إلى التقاطع، ومتوخية إحكام سيطرة طويلة الأمد على مقدراته.

عندما قررت باريس خوض الحرب تحت شعار «تحرير الكويت» إلى جانب الولايات المتحدة وبريطانيا وسائر الحلفاء، استدعى الرئيس الفرنسي، فرنسوا ميتران، الأحزاب السياسية (باستثناء حزب «الجبهة الوطنية») وشكل وفوداً ترأستها شخصيات مختلفة، ومنها بعض أقطاب المعارضة، لشرح الموقف الفرنسي في العالم، وخصوصاً في آسيا وإفريقيا. وكان يمكن أن يبدو الأمر نوعاً أو أسلوباً من أساليب تركيز الوحدة الوطنية والاستقواء بها وتعبئتها خلف قرار مصيري، كما هي الحال في كل الحروب التي تخوضها الدول ذات الاستقرار السياسي الثابت والمستمر. إلا أن فرنسا لم تكن في حال الدفاع عن النفس، فضلاً عن أنها كانت تنوي خوض معارك في ميادين تبعد آلاف الكيلومترات عن حدودها، وأمنها القومي مستتب، وفي منأى عن أي تهديد. أضف إلى ذلك أن بغداد استقبلت رئيس «الجبهة الوطنية»، جان ماري لوبن Jean Marie Le Pen ، الذي محض العراق تأييده من دون أي حرج. ومع أن لرئيس «الجبهة الوطنية» في فرنسا الكثير من الخصوم الألداء الذين يراقبون مواقفه، ويترصدون هفواته، ويتوقون إلى محاسبته عن كل شاردة وواردة (إلى درجة أنه رفع في الآونة الأخيرة شعاراً يحض فيه أنصاره على صفع الصحافيين أنى التقوهم)، فإن أحداً لم يتهمه بالخيانة، وهو كان يتحرك بحرية تامة بين بغداد وباريس.

وعندما سئل أقطاب المعارضة الذين رأسوا بعض الوفود الرسمية إلى الخارج، لماذا يدعمون الرئيس ميتران في حرب الخليج، قالوا أمام وسائل الاعلام، إن الحرب المنوي خوضها ستقرر مصير المسألة الفلسطينية التي ستنفتح على متغيرات جغرافية ـ سياسية لا يمكن لفرنسا أن تنكفىء حيالها، بل عليها أن تشارك في صنعها، وتالياً فإن الأمر يتجاوز الأشخاص والخصومات السياسية الداخلية. كأن هذا الموقف هو الصدى المستمر لاتفاقات سايكس ـ بيكو لاقتسام النفوذ والهيمنة في المنطقة.

كل هذا لم يمنع نشوب الخلافات على مستوى الحكم في فرنسا حول طريقة وامكان إبراز الدور الفرنسي المميز في التعامل مع ذيول الحرب والنتائج التي ستؤول إليها، فخرج إلى العلن موقف وزير الدفاع الفرنسي آنذاك، جان بيار شوفنمان Jean Pierre Chevenement ، نشازاً

(٢) *Hérodote*, revue de géographie et de géopolitique يدير ويشرف على هذه الدورية الجغرافي الفرنسي المشهور ، ايف لاكوست Yves Lacoste ، وهي فصلية تصدر منذ أكثر من عشرين عاماً.

(٣) Helène Carrère D'Éncausse, *L'Empire Éclaté* (Paris: éd Flammarion, 1974).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نافراً في «الأوركسترا» التي يقودها «المايسترو» الأميركي. وأوضح الوزير الاشتراكي المذكور، ذو التوجه الديغولي الاستقلالي، أن القوات الفرنسية في حملة الخليج لن تشارك في ضرب أي أهداف داخل الأراضي العراقية، وإنما ستكتفي بالتعامل الحصري مع الفرق العراقية الموجودة على أرض الكويت، متوخياً بذلك الحفاظ على مسافة معينة من الولايات المتحدة، وعدم الدخول في صراع مكشوف ومباشر مع الشعب العراقي.

توافق ذلك مع موقف بعض الدول العربية الفاعلة كسوريا التي أعلنت التزامها تحرير الكويت فقط، مؤكدة أن جنودها لن يشاركوا في التعرض للمواقع العسكرية على أرض الدولة العراقية.

وبدا واضحاً أن وزير الدفاع الفرنسي يسعى لتأكيد استقلال وتمايز فرنسيين في الأداء السياسي والعسكري حتى تتمكن فرنسا من قطف ثمار الحرب من موقع الند للولايات المتحدة الأميركية، إلى جانب الاحتفاظ بصورة مختلفة عن الأميركي الذي تكن له شعوب العالم الثالث مشاعر متناقضة تراوح بين الاعجاب والنفور، والتي يغلب عليها العداء في نهاية المطاف.

لقد أمل شوفنمان Chevenement في أن تبقى فرنسا قريبة من الشعوب المعنية في حرب الخليج لدى استحقاق بت أمور المنطقة بعد حسم الموقف العسكري. وغداة إعلان شوفنمان موقف فرنسا المميز، فوجيء الفرنسيون وسواهم باستقالته أو إقالته، والأرجح أن ذلك تم بضغط أميركي. ولما اندلعت المعارك، شارك سلاح الجو الفرنسي إلى جانب سلاحي الجو الأميركي والبريطاني في الإغارة على عمق الأراضي العراقية، ليكون بذلك جزءاً لا يتجزأ من الاستراتيجية الأميركية، ومنفذاً أوامر واشنطن العسكرية.

نسوق هذا الكلام لتبيان تداخل الأزمات في الشرق الأوسط وتشابك قضاياه، وخصوصاً قضيتي فلسطين والنفط.

أما في الولايات المتحدة، فقد اختلف الأمر عنه في أوروبا. ففي النصف الثاني من القرن العشرين، انتقلت مراكز القرار السياسي الدولي من عواصم أوروبا الغربية إلى موسكو وواشنطن، فاختلفت زوايا الرؤية الجغرافية، واتسعت مقاييسها، إذ صار الشرق الأوسط يقع جنوب الاتحاد السوفياتي، ولا شرق ولا غرب بالنسبة إلى الولايات المتحدة. لكن رسوخ المصطلحات، التي نحن في صددها، حافظ على بقائها، وإن في الشكل. واستمر مصطلح «الشرق الأوسط» متداولاً وشائعاً نظراً إلى الحروب المتعددة وشبه الدورية على أرضه. ولما كانت العاصمتان الكبيرتان تعتبران أنهما معنيتان بعموم الكرة الأرضية، فقد مال بعض المؤلفين إلى توسيع الرقع الجغرافية لكل المصطلحات المتداولة فكانت الإشارة إلى الشرق الأوسط تعني في بعض الأحيان الحزام الممتد من «المغرب العربي» غرباً حتى أفغانستان وباكستان شرقاً، ومن تركيا واليونان

(٤) يورد زين زين هذه الحادثة الطريفة في مقدمة كتابه الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان (بيروت: دار النهار، ١٩٧٧) معتبراً إياها «شهادة صارخة على خطورة الجغرافيا لفهم التاريخ فهماً واعياً...(و) خطورة الدور الذي يؤديه الموقع الجغرافي في مشكلات العالم، القومية منها والدولية» ص ٩.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شـمالاً حتى إثيوبيـا والقرن الإفريقي جنـوباً. ولكن برزت إلى الـوجود، من الناحـية العملانية، وخصوصاً على الجبهـة الأميركية، مصطلحات جغـرافية أكثر دقة وموضـوعية تفي بالحاجات التي يتـطلبها تحليل المعـطيات السيـاسية والاقتصـادية لضبط الاسـتهدافات الجيـوسياسية وتعيينها في أثناء الحرب الباردة، من دون أن تتمكن من إلغاء المصطلحات المتداولة.

والواقع أن المواجهـة بين موسكو وواشنطن بلغت في السبعينات والثمانينات حد الحسم، وصار الأداء الـسياسي لكل مـنهما يأخذ في الحـسبان احتـمال انهيار الآخر. وانقـسم المؤلفون والمحللـون فريقين: البعض رأى أن النظـام الرأسمالي أصبح على شفير الهاويـة لأنه لن يستطيع الصمـود أمام الأزمات المتـلاحقة التي يولـدها الركود الاقـتصادي، وتاليـاً لن يكون قادراً على استيعـابها، وتكفيه أزمة شبيهة بتلك التي حصلت عـام ١٩٢٩ حتى يدق ناقوسه. وكانت إحدى المجلات الفرنسيـة المرموقة التي تعنـى بالشؤون والدراسات الجـيوسياسية، وهي «هيرودت» *(Hérodote)* تشير من وقت إلى آخـر إلى أن الغلبة سـتكون للنظـام السوفيـاتي لأنه يمتلك القوة المعنوية المؤسسة على عقيدة واضحة تجعل ميزان القوى يميل لمصلحته (٢).

أمـا الباحـثة الفـرنسيـة «هيلين كـارير دانكـوس» فقد وضعـت قبل ذلك كتـاباً عن الإمبراطوريـة السوفياتية «الإمبراطوريـة المفتتة» *(L'Empire Éclaté)* تشرح فيه ما يتراءى لها من تناثر الكـتلة الشيوعيـة عبر الثغرة التي ستـفتحها اليقظة الإسلامـية في الجزء الآسيوي من الاتحاد السوفياتي، ولا يلبث التآكل أن يطاول أسس النظام برمته (٣).

مهما يكن من أمر هـذه التوقعات الـتي لم تأت في كل الأحوال مـطابقة لمجـريات الأمور لاحقاً، فـإن ما يهمنا هنا هـو أن السبعينات والثـمانينات التي شـهدت فترة الـتأزم المتصاعد بين المعسكـرين، دفعت بعض المسؤولين الكبار إلى التخلي عن مصطلحات «الشرق الأقصى» و«الشرق الأوسط» لافتقارها إلى المـوضوعية العلمية مـن جهة، ولمطاطية المسـاحات التي تغطيها، فوضع زبيغنيو بريزنـسكي، مستشار الأمن القـومي في عهد الرئيس الأميركي الـسابق، جيمي كارتر، مصطلحات جديدة تـشير إلى أوجه الصدام مع الاتحاد السوفيـاتي، وترتكز على أسس جغرافية صرفة وجغرافية ـ عـسكريـة في آن معاً، وهي «آسيا الجنوبية الغربية» و«قوس الأزمة» أو قوس التأزم (Crise's Arc) ، مشيراً إلى المساحات المتصارع عليها ، والتي يشقها خط تماس يفصل بين القوتين العظميين، ويمتد من بيروت إلى إسلام أباد، مما جعل هذا «القوس» مصطلحاً متداخلاً مع «الشرق الأوسط». لكـن هذه التعابير لم تأخذ طريقهـا إلى وسائل الاعلام التي بقيت تردد ما كان شائعاً من تسميات.

تحديد الشرق الأوسط

لا شك في أن أفضل السبل لتعيين المـساحات والمواقع الجغرافيـة، هو اعتماد النقاط التي

(٥) عصـام خليفـة الحـدود الجنـوبيـة للبنـان بين مـواقف الطـوائف والصـراع الـدولي ١٩٨٠ ـ ١٩٣٦ (بيـــروت: ١٩٨٥).

(٦) تطالب الولايات المتحدة وبريطانيا، ليبيا بتسليم اثنين من رعاياها بتهمة التورط في حادث تفجير طائرة «بان أميركان» فوق لـوكـربي في اسكتلنـدا عـام ١٩٨٨, كما تطلب فرنسا من ليبيا «التعاون» في التحقيقات التي تجريها في حـادث تفجير طائرة تابعة لشركة «أوتا» الفرنسية، فوق صحراء النيجر عام ١٩٨٩, هذا وقد فرض مجلس الأمن عقوبات متعددة على ليبيا.

(٧) لا شك في أن قـضيـتي «لوكربي» و«أوتا» ليستا سوى ذريعة لتصفية حسابات معينة مع ليبيا.

(٨) تم الانـزال الأميـركي ـ الدولي في الصومال في ٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٣ وسط حملة إعلامية مثيرة بدأت بوصول النجمتين السينمائيتين، صوفيا لورين وأودري هيبورن إلى مقديشو. وبعد أشهر عدة، أي في نهاية ﷺذار/ مارس ١٩٩٤ انسحب جنود البحرية الأميركية من دون تحقيق أي من الأهداف التي أعلنتها واشنطن.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تـشير إليها الجهات الأربع ودرجات الـطول والعرض المتفرعـة عنها. ولكن إذ ذاك يصبح الكلام على كل حدث يجري على الكـرة الأرضية، في حاجة إلى خـريطة مرفقة بـنص تفسيري خاص بها ومذيلـة بمقياس محدد، مما يجعل الأمر مـقتصراً على الخاصة. والمسألة هـنا تستوجب مستوى معيناً من المعرفة الرياضية والعلمية لا تتوافر لدى العموم. وقد وقعت حادثة إعلامية طريفة ذات دلالة في الحرب العالمية الثانية تشير إلى ما نرمي إليه: في الثالث والعشرين من شهر شباط/ فبراير ١٩٤٢، وقـبل أن يلقي الرئـيس الأميركي روزفلـت خطابه المـوجه إلى الأميركيين بـوقت قصير، نصح المذيـع المستمعين في الـولايات المتـحدة، وفي العالم بـأسره، بأن يتـابعوا خطـاب الرئيس «وبيدكم خريطة» (٤). يـمكننا بسهولة أن نتصور عدد الذين استجابوا لهذه النصيحة! وكما هو معروف فإن وصول الآراء الجديدة إلى الناس يـتطلب وقتاً طويلاً، وخروج الآراء القديمة يتطلب وقتاً أطول. ويسـتمر السياسيـون والاعلاميون في تداول المصطلحـات التي درجوا عليها لأنهم يتوجهون إلى الجمهور العريض لاقناعه بطروحاتهم أو للدفاع عن سياساتهم أو استراتيجياتهم، الأمر الذي يستوجب من وقت إلى آخر عملية ضبط للتسميات وكشف أبعاد معانيها.

لقـد تبين لنا من كل ما تقـدم حول نشأة مصطلح الـشرق الأوسط ومدلوله وتطوره، أن معايير تحديده بعد التقلـبات الكثيرة التي مر بها، قد تأسـست على الشأنين النفطي والفلسطيني ومـضاعفاتهما الـدولية. ونضـيف هنا شأنـاً آخر، هو الشـأن المائي لأن الدول المعـنية مباشرة بالشأنين السابقين وجدت نفسهـا معنية أيضاً بموضوع المياه ومـضاعفاته السياسية. فالشرق الأوسط، ومن زوايـا مختلفة، يمثل منطقـة تتسم بالجفاف، وتعـاني أغلبية بلدانه حـاجة ماسة ومتصاعدة إلى الميـاه. فأراضيه صحراوية حارة في الجزء العربي، وصحراوية صقيعية في الجزء غير العربي.

إلا أن موقـعه جنوباً على حـافة المناطق المـدارية الرطبـة، وانتصاب جبـاله التي تتلقف الأمطار وتخـتزنها لتتـفجر ينابيع ذات مـناسيب مرتفـعة، قد مكنتـا الأنهار الكبرى من اختراق الصحاري فـيه حاملة إليهـا الحياة الاجتماعيـة منذ ما قـبل التاريخ. فالـنيل والفرات والعاصي والليطـاني ودجلة والروافد تشكل، إلى جـانب بعض الجبال، واحات منعـزلة. كما تنتمي واحات أخرى أقل شـأناً إلى جداول تتلاشـى في السبخات الصحراوية.

إلا أن هذه الأنهار تتقاسمها دول تصطـدم مشاريعها المائية بما تولده الحدود السياسية من اختلاف في وجهات النظر وإشكالات لا شيء يشير إلى أنها ستنتهي في المدى المنظور.

والحقيقة أن أزمة المياه في المنطقة نشأت مـنذ بداية هذا القرن، واستمرت مستفحلة حتى يـومنا هذا. ففي معاهدات سايكـس ـ بيكو اختلف الفرنسيون من جـهة، والبريطانيون والحركة الصهيونيـة من جهة أخرى، حول رسـم حدود لبنان الجنوبـية (٥). وكان الخلاف يدور حول

(٩) انعكس ذلك على لبنان. إذ كان من مؤشرات انخفاض

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مياه نهر الليطاني. ودولتا مصر والسودان لهما هم دائم تتشاركان فيه وتختلفان عليه هو النيل. كما أن مشروع نقل قسم من مياهه إلى إسرائيل قد طرح على بساط البحث غداة اتفاقي كمب ديفيد. وشط العرب لا يزال مدعاة للخلاف بين إيران والعراق.

وفي فلسطين ومحيطها، الأحداث التي يتسبب فيها الصراع على المياه، أكثر من أن تحصى. فبعد نشأة إسرائيل بقليل، وفي أوائل ربيع عام ١٩٥١ اندلعت الاشتباكات بين الجيشين، السوري والإسرائيلي، حول بحيرة الحولة وضفاف نهر الأردن حيث كانت تل أبيب قد قررت توطين آلاف اليهود القادمين إلى فلسطين. واستمرت أعمال العنف حتى شهر أيار/ مايو، وشارك الجيش العراقي فيها، على الرغم من الأجواء السياسية المتلبدة بين دمشق وبغداد. وعام ١٩٥٥ شنت القوات الإسرائيلية هجوماً واسع النطاق على المراكز السورية في منطقة بحيرة طبريا بهدف الاستئثار بها وتنفيذ مشاريع مائية فيها من تجفيف واستثمار. وفي الستينات عقد العرب العزم، من خلال مؤتمرات القمة، على تنفيذ مشاريع خاصة بنهر الحاصباني ونبع الوزاني واليرموك، أحد روافد الأردن، فردت إسرائيل بغارات عنيفة. ومثلت اشتباكات عام ١٩٦٥ مقدمة لحرب عام ١٩٦٧ الشاملة. وفي السبعينات استحكم الخلاف بين العراق وسوريا حول مياه نهر الفرات. وفي الثمانينات تسببت مشاريع مائية في الأحواض العليا لنهري دجلة والفرات، وخصوصاً في حوض هذا الأخير، في أزمة مثلثة بين تركيا وسوريا والعراق. وأخيراً، تحتل قضية المياه في المفاوضات الجارية في واشنطن بين الدول العربية وإسرائيل، جانباً في غاية الأهمية. هذا غيض من فيض، والأمثلة كثيرة. إذاً، إضافة إلى النفط وفلسطين، تمثل المياه قضية أساسية أخرى في الشرق الأوسط. ويتبين مستويان في النسيج المعقد للعلاقات المتأزمة في المنطقة، يتقاطعان أحياناً، ويتمايزان أحياناً أخرى: فلسطين ومضاعفاتها القومية والاجتماعية والدينية من جهة، والنفط والمياه والانعكاسات الاقتصادية والتنموية والبيئية، من جهة أخرى.

وعلى هذا الأساس يمكننا القول إن «الشرق الأوسط» بتمحوره حول هذه القضايا الثلاث مع ما يتفرع عنها، يتشكل في العقد الأخير من القرن العشرين من الجزء الآسيوي الإفريقي الممتد حول المتوسط الشرقي والخليج، ويشتمل على تركيا وإيران والجزيرة العربية والهلال الخصيب ووادي النيل، وتحوطه سلسلة من الحرائق الممتدة من أفغانستان وحروبها، إلى القرن الإفريقي ومعضلاته، مروراً بالاشتباكات بين أذربيجان وأرمينيا حول إقليم قره باغ، وحرب البوسنة وامتداداتها البلقانية، إلى ليبيا وسيف قضيتي لوكربي و«أوتا» المسلط عليها (٦).

وتطاول هذه الحرائق أطراف «الشرق الأوسط» كون إيران والسعودية تتداخلان في حروب أفغانستان (كما باكستان) من دون أن تنزلقا فيها. وتركيا تراقب مستنفرة ما يجري في شمالها وغربها. ودولتا مصر والسودان تنظران بعين الريبة إلى العلاقات المتأزمة بين الغرب

سقف السياسة الفرنسية في الشرق الأوسط إلغاء فرع جامعة ليون في بيروت الذي كان يضم المعهد العالي للآداب والمركز العالي للدراسات الرياضية، والاستعاضة عنه بمركز الدراسات والأبحاث للشرق الأوسط المعاصر Centre d'Etudes et de Recherches du Moyen - Orient Contemporain .

(١٠)يورد سمير أمين بعض التفاصيل حول هذا الموضوع في مقالته من كتاب قضايا استراتيجية في المتوسط، ترجمة سناء أبو شقرا، (بيروت: دار الفارابي، ١٩٩٢).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وليبيا [٧].

ومع الانزال الأميركي في الصومال تحت راية الأمم المتحدة، تكتمل دائرة أخرى تحيط بالشرق الأوسط، وتضم بلداناً أخرى تعاني من أزمات مختلفة [٨].

خصوصية الشرق الأوسط

إن المفارقة الرئيسية التي ينفرد بها هذا الشرق، تكمن في كونه مركزاً جغرافياً بشرياً للقارات الكبرى، وفي الوقت نفسه «طرفاً» مسلوب الإرادة والموارد من «أطراف» الآلية الإنتاجية العالمية بنسقها الرأسمالي وطبيعته الاقتحامية والالحاقية على الصعيدين الاقتصادي والسياسي. وتتوزع مراكز هذه الآلية وفق تراتبية معينة بين الولايات المتحدة وأوروبا الغربية واليابان، وربما لاحقاً بعض أجزاء الشرق الأقصى.

وهكذا يتنازع الشرق الأوسط عاملان: جغرافي من جهة، وبنيوي اقتصادي عالمي من جهة أخرى، إذ إن موقعه المميز أسس للحضارات الحافلة ذات القيم والمفاهيم المستمرة في تضاعيف المسار الإنساني العام، مما يتناقض وهامشيته الإنتاجية. وعلى سبيل المثال، عندما تستذكر شعوب المنطقة أو نخبها ماضيها وتواجه حاضرها، تصاب إما بالخيبة والسخط، وإما بالتبرم والتمرد. ففي هذا الشرق ابتدأ التاريخ عندما انتقل الإنسان من حال الصيد والقطاف إلى الزراعة وتدجين الحيوان، وفيه تأسس نظام السوق، وعليه قامت المدينة والمدنية، ونشأت الدولة التي سرعان ما اتخذت الوجهة الإمبراطورية. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن القوانين التي حكمت الصراع بين الإمبراطورية البحرية والإمبراطورية البرية في الشرق القديم، تماثلت إلى حد كبير مع تلك التي سادت في النزاع المتأخر بين الإمبراطورية الأميركية البحرية والإمبراطورية السوفياتية البرية، على الرغم من اختلاف المقاييس والتقنيات، فضلاً عن الأديان التي عمت العالم ودورها العسكري والسياسي والاجتماعي في التاريخ.

هذا الإنتاج الحضاري بما له وبما عليه، ينطوي على مفاهيم وتجليات لا تزال تطبع العالم المعاصر وتقوده. لذلك، فإن كل مقاربة للشرق الأوسط تقتصر على النظرة الاقتصادية البحتة القائمة على إدراجه في خانة العالم الثالث وطرح مسائله على المستوى التنموي من دون غيره، تبقى مبتورة إذا لم تأخذ في الحسبان هذا الانفصام بين الماضي والحاضر في وجدان الشعوب المعنية.

الضغط الأميركي في الشرق الأوسط

في ظل ما آل إليه العالم في نهاية القرن العشرين حيث تسعى الولايات المتحدة لتوكيد زعامتها المطلقة على الكرة الأرضية، تتخبط شعوب الشرق الأوسط، وإن بشكل متفاوت، في

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

معاناة حادة مردها التفوق الإسرائيلي في شتى الميادين، المرتبط عضوياً بالتسلط الأميركي الذي يمارس الضغط المستمر عبر مختلف أنواع الترغيب والترهيب.

ولا شك في أن الولايات المتحدة هي القوة الوحيدة التي وضعت تصوراً شاملاً لهيمنتها السياسية والاقتصادية. ووضعت قيادتها العسكرية خططاً تتسم برؤية استراتيجية تطاول مختلف القارات والمحيطات والأجواء؛ وهذا الطموح الذي لم يعرف التاريخ مثيلاً له، تشكل مظاهره رادعاً حاسماً للذين يودون التصدي له. لكنه في الوقت نفسه، ونظراً إلى اتساعه وسعيه للاحاطة بالكوكب الأرضي، وكأنه ـ إذا جاز التشبيه ـ غلاف الأوزون الذي يظلله، يعزز احتمال وجود الثقوب والثغرات في أكثر من مكان.

والواقع أنه لا توجد منطقة في العالم لم (ولا) تتدخل فيها الولايات المتحدة، إما بالانقلابات أو بالتدخل العسكري المباشر وغير المباشر، أو بالضغوط المالية والاقتصادية بواسطة المؤسسات الدولية، مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. واللافت أن أوروبا واليابان كانتا دوماً في موقف المؤيد، وإن على مضض أحياناً.

وحدها فرنسا حاولت أن تنتهج إبان الحرب الباردة (قبل انهيار الاتحاد السوفياتي) سياسة مميزة عبر مواقف تلتزم مسافة معينة من الولايات المتحدة، وخصوصاً مع وصول الجنرال ديغول إلى الحكم عام ١٩٥٨، إذ صاغ مشروعاً متكاملاً يقوم على تحديث الاقتصاد واستبدال الاستعمار التقليدي بنشر الوجود الثقافي الفرنسي وتعميمه، وامتلاك قوة نووية رادعة جعلت فرنسا قوة عظمى ذات هيبة دولية. ثم اتجه نحو إرساء قواعد بناء اقتصادي أوروبي يمتد من الأطلسي حتى الأورال (شاملاً الاتحاد الروسي الحالي) لأنه كان يرى أن التطور الاقتصادي سيقود الاتحاد السوفياتي إلى السوق الأوروبية المشتركة. كما رفض الصورة التي قدمتها الولايات المتحدة عن الشيوعية الدولية. إذ وجد فيها وسيلة تعمل من خلالها على بسط هيمنتها على أوروبا. لذلك عارض بشدة دخول بريطانيا السوق الأوروبية لاعتقاده أنها جسر يمنح السيطرة الأميركية تعزيزات إضافية.

لقد كان أحد أبعاد الاستراتيجية الديغولية الوصول إلى استقلال أوروبي ناجز عن الولايات المتحدة. وترتب على هذا النهج سياسة متوسطية وشرق أوسطية غالباً ما كانت تثير غضب الولايات المتحدة وإسرائيل. ولم يستمر هذا الطموح طويلاً بعد ديغول لكون سقف السياسة الفرنسية انخفض، وخصوصاً في الشرق الأوسط، مع الرئيس السابق فاليري جيسكار ديستان (٩).

ثم تابعت فرنسا انزلاقها مع اليسار الاشتراكي، وريث الاستعمار التقليدي والمنحاز دائماً إلى الأميركي الأطلسي والصهيونية، فتخلت مع الرئيس فرنسوا ميتران عن سياسة شرق

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أوسطية مميزة أو حـازمة لتلتحق بركب الولايـات المتحدة قوة مساندة وإضـافية إليها في سائر أنحاء إفـريقيا وآسيا، على الرغم من بعـض المحاولات الخجولة التي تقوم بهـا لتثبيت حضورها المستقل، وخصوصاً الثقافي، هنا أو هناك، ومن وقت إلى آخر.

آثار الضغط الأميركي

منذ الحرب الـباردة وحتى اليـوم، تميز البحر المـتوسط، وخصوصـاً حوضه الشرقي، بوجـود عسكـري بحري كثـيف أميركي وسوفـياتي على السـواء. وتجمع مختلف المعـلومات المتـوافرة على أن نسـبة كبيرة من الـرؤوس النوويـة التي كانت تجـوب المحيطات والـبحار قد انوجدت في المتوسط: وقد غرق في هذا البحر نحو أربعين رأساً نووياً إثر حوادث بحرية تجاوزت المئة (١٠)، مما تسبب في تلـوث يبدو أعلى مما هو عليه في أي بحـر أو محيط. وينطوي هذا الأمر على خطورة كبيرة، نظراً إلى ضيق المتوسط من جهة، وشواطئه المأهولة بكثافة من جهة أخرى.

كانت ذريعـة الولايات المتحدة في حشـد قواتها، تقوم على التصـدي للخصم السوفياتي؛ لكن انـسحاب هذا الأخـير من حلبة المـواجهة، لم يخفف من وطـأة هذا الحشـد، بل على العكس توسعت رقعة الوجـود العسكري الأميركي، فجرى احتـلال الخليج، وتلاه انزال في الصومال لا تزال مـضاعفاته سارية المفعول، على الرغم من الانسحاب. كذلك توقعت وسائل الاعلام في شهر شباط/ فبراير الماضي احتمال نقل قـيادة الأسطول السادس الأميركي، العامل في البحر المتوسط، من إيطاليا إلى حيفا في إسرائيل.

وبدا في ضوء ذلك، أن أمور الشرق الأوسط أصبحـت معقودة اللواء للتحالف الأميركي ـ الإسرائيلي الـذي فرض «مفاوضات السلام» بين العرب وإسرائيل، وفق شروط لا يتردد العرب في الإعلان جهـاراً عن مدى اجحـافها بحقـهم. ولقد أظهـر الضغط الأميركـي على الشرق الأوسط صورة الآفـاق القاتمة لمختلف بلدانه. فـمصر تعاني خلخلة اجتماعيـة تضرب جذورها في اتفاقي كمب ديفيـد اللذين صدما الحس الـوطني المصري وقلبا فجأة وبفجـاحة التوجه القومي المصري رأساً على عقب، فقـاطعت معظم الشرائح الاجتماعيـة آلية التطبيع المنـصوص عليها في الاتفاقين المذكورين، ووقع التبـاعد بين الشعب وحكـومته، وتعثرت خطـط التنمية، كما تفـاقمت المسائل الاقتصادية، وتصدع المجتمع المدني، وطاولت الشروخ مستويات عدة بما فيها الطائفية.

أما الـيمن، فالوحـدة بين شطريه ارتـدت إلى تناحر سرعـان ما أفضى إلى حـرب شاملة حسمـت فيها صنعاء العاصمة الأمـور لمصلحتها مخلفة انعكاسـات وشروخ يقضي إلتئامها وقتاً غير قصير تستمر خلاله المعاناة المتعددة الجوانب لابناء اليمن.

وفي الـسعودية ينـعكس الوجود العـسكري الأميركي في الخليج على أكـثر من صعيد، إذ، لأول مرة في المملكة، ارتفعت أصـوات الاحتجاج في المساجد، الأمـر الذي دفع الملك فهد إلى توجيه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

دعـوة علنيـة إلى المشـايخ وسائـر العلماء للاجـتماع به، في محاولـة لاستيعـاب هذه المظـاهر الاستثنائية التي تلت حرب الخليج ومضاعفاتها.

وتعـيش الكويت وسـائر الإمارات هـاجس الالغاء، وتـالياً ديمـومة الوجـود العسكري الأميركي. وينعكس ذلك توتراً حاداً ومشاكل حدوديـة تولد احتكاكات وصدامات عسكرية، وإن محدودة.

أما العـراق فقد وضـع على حافـة التقسيم في حـال من اللاوزن السيـاسي، وبات مصيره مرتبطاً بما تفضي إليه مفاوضات السلام العربية ـ الإسرائيليـة من تطـورات جيوسياسية.

والأردن الـذي كان قد ربط اقـتصاده بالعـراق بعدما تخلى عن الـضفة الغربيـة لمنظمة التحرير الفلسطينـية، لم يجد عقب التطورات الدرامية التي عرفها الشرق الأوسط سوى إسرائيل حاضنة لاستمرار نظامه.

ومـنظمة التحـرير الفلسـطينية يـستقرأ وضعهـا من خلال تصريحات رئيـسها، ياسر عرفات، الذي يشبه الصلح مع إسرائيل بصلح النبي محمد (ص) مع أهل مكة.

وتركيا التي تـطلعت إلى قطف ثمار تعاونها مع التحالف الأميركي ـ الأوروبـي في عملية الخليج، وجـدت أنها لا تزال تعاني من الحربـة الكردية المغروزة في خاصرتهـا الشرقية الجنوبية حيث يحاول الجيش، بشتى الوسائل، القضاء على البؤرة الانفصالية.

فقط سوريا وإيران انفردتا بميزة نجاحهما في الحفاظ على استقرارهما الداخلي، إلى جانب التزامهما قضايا المنطقة، وفق رؤيتهما الخاصة لمصالحهما الحيوية، الأمر الذي جعل الدولتين في حاجة إلى المزيد من الـتكافل بينهما، على الرغم من التباين الـذي يصل إلى حد التناقض بين عقيدة كل من الدولتين.

والواقع أنه إذا كـان العامل الـديني في المجتـمع الإيراني يمـثل عنصراً من أهـم عناصر التماسك القومي، فـإن الخطاب الديـني السياسي في مجتمعـات أخرى قد يؤدي إلى الـتنابذ الذي يقـوض أسس الدولة برمتهـا. لذلك، فإن دمشق حسـمت أمرها باكراً مع الحـركات الدينية ذات التـوجه السياسي من دون أن تتردد في عقد تحالف متين مع إيـران الإسلامية عندما انقلب شعبها على الـشاه، حليف إسرائيل. وبهـذا عززت سوريـا قدراتها عـلى المواجهة والمنـاورة. ويبقى هذا التحالف الذي يبدو، ظـاهراً، معاكساً لطبيعة الأمـور بين «المنظور الإيراني للإسلام» و«القومية العـربية»، مـؤسسـاً على مدى قـدرة النظـامين على الصـمود في وجه العـواصف التي تضرب محيطهما.

*****

حيال هذا الـوضع الشرق أوسطي، تترقب الدول متغيرات ومنعطفات حادة قد تترتب على

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المفاوضات العربية ـ الإسرائيلية حيث تتكدس الملفات ذات القضايا الشائكة.

وتتماثل هذه العملية في الكثير من جوانبها مع التبدلات الجيوسياسية التي أفرزتها معاهدات سايكس ـ بيكو الشهيرة انطلاقاً من الهلال الخصيب، نواة الشرق الأوسط

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com